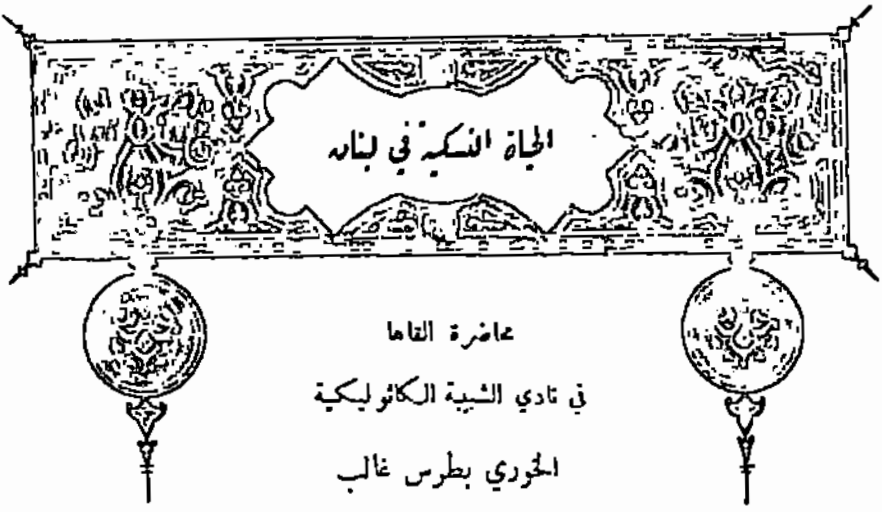

محاضرة القاها

في نادي الشبيبة الكاثوليكية

الخوري بطرس غالب

ان من اعجب مظاهر الحياة الكاثوليكية في هذه البلاد الحياة النسكية. ولكن لا سبيل الى ان ندرك بعض الادراك ما كان عليه من البطولة الزهّاد الذين انتحلوها فجثوا بمحبة الصليب ، وساروا شوطاً بعيداً في طريق الكمال الانجيلي الّا بتفرسنا بمحيّاهم الوضّاح الساطع بنور التضحيات اليومية ، والتجرّد التام ، والانقطاع الكامل عن العالم ، وحرمان الذات ما جاز التمتع به من خيرات هذه الدنيا. لذا قد انتقيت ثلاثة جباه عاشوا في ثلاثة اعصر مختلفة ، كانوا فيها مثالاً حيّاً للحياة النسكية ، يرمون الى امانٍ واحدة وغاية واحدة ، وان تنوّعت الطرق التي سلكوها بلوغاً اليها.

كانت حياتهم الباطنة تنيرها نعمة خاصة تشفّ عنها اعمالهم اليومية ؛ ورغم عراكهم الشديد المتواصل ضد عدوّ خلاصهم ، كنت ترى الفرح مشرقاً على وجوههم. فكان اولئك الغاصبون الشديدو المراس الذين توّخوا فتح ملكوت السماوات من اودع الناس ، والطفهم معشراً ؛ وكان لجنونهم من الجاذبية ما جمع حولهم مئات التلاميذ.

١

احد اولئك الثلاثة مارون الناسك الذي تُعيّد له الكنيسة المارونية في ٩ شباط ؛ فانه قد بلغ في حياته مبلغاً من البسالة اهّله لان يكون اباً للحياة النسكية في بلاد قورش ، ثم في لبنان الكبير ، بواسطة تلاميذه ؛ ومؤسساً لطائفة ما انفكت امينة لصليب يسوع ، ومخصبة بالنسّاك والجباه.

عاش مارون خارج الحدود اللبنانية ، لكن مثله وشهرته جلبا الزائرين من البلدان المجاورة ، فرجع عدد غفير منهم مطرًا بأريج قداسته ، ومعمّرًا بما رآه من اعمال الزهد ، وصرف بعضهم شطرًا من حياتهم بجانبه ، ثم انحازوا الى الجوار فاعتزلوا في رؤوس الجبال او في المغاور ، ناسجين على منواله في التقشف وشظف العيش.

الى هؤلاء التلاميذ اشار تودوريطس ، اسقف قورش ، حين ذكر ، في تاريخ الجهاد الذي ألفه ، بستان القداسة الشهي بثماره اللذيذة الذي غرسه مارون في نواحي قورش. اختار هذا الحبيس العظيم معتزلًا على قمة جبل في هيكل كان في القديم مكرسًا لعبادة الشياطين ، وربما كان مؤسسوه من اجداد اليزيدية . فبنى له كوخًا كان يأوي اليه احيانًا من العواصف والامطار. وانقطع الى التأمل وممارسة الاماتات المدهشة . فقص اولًا شعره — لان الجهاد يبتدئون بقص الشعر ثم يرسلونه ولا يقصونه فيما بعد — ولبس المسح مكتفيًا من الغذاء بالعشب ، ممتنعًا عن الثمار لا يشرب سوى الماء القراح . وكان يصرف وقته في الصلاة ويعاقب جسده اشدّ العقاب ساهرًا ليله لا يخصص للنوم من وقته الا ما كان ضروريًا للراحة . فلا تجده الّا غائصًا في لجة الصلاة العقلية ، او عاكفًا بلذة سماوية على تلاوة السواعي في مواقيتها ، او مكبًّا على قراءة الاسفار الالهية.

على انه وان نفر على قمة الجبل ارادةً ان يقطع كل علاقة تصله بالعالم ، ما لبث ان رأى محبسته اصبحت محطًا لرحال الزائرين . فان شهرة فضائله ، وعرف قداسته ، ذاعتا حتى في الاماكن القاصية ، فتقاطر اليه الناس من كل بلاد قورش وما جاورها : سقاه ، وخطأة ، وتعساء ، وراغبون في الكمال الانجيلي. فاخذ يتزايد عدد تلاميذه ، وقد ذكر تاودوريطس اشهرهم فضيلةً وتقشفًا ، فانهم ما اكتفوا بالتشبّه بمعلمهم ، بل تفننوا في الاماتة مستنبطين طرق جديدة يذللون بها الطبيعة. فعلى انقاض المادة واجسادهم اقاموا بناء حياتهم الروحية في معزل عن ضوضاء العالم وبعيدًا عن جرائمه القتالة.

ولا يخطر على قلب بشر ما اخترعوه ، لرغبتهم في التضحية ، من وسائل اماتة الشهوات . فانهم كانوا يصرفون حياتهم في الفضاء لا يرضون ان يحجب عن

ابصارهم السماء التي يتوقون اليها ستارٌ ولو سقفاً يقيهم البرد والحرّ.

وها انا ذاكرٌ لكم اسماء البعض من اولئك النساك القديسين تلاميذ القديس مارون.

فان منهم ، على ما شهد لهم القديس مارون نفسه ، من فاقوه زهداً في الدنيا ، وصرامة على النفس ، وتمكناً في القداسة ، من مثل زابينا الذي التمس مارون بركته لفرط اجلاله اياه.

ولم يكن اقل منه بطولةً يعقوب الذي وصفه تلودوريطس بانه جدير بكل مديح. تقفّى اثر معلمه وازدان بجميع الفضائل. حبس نفسه في شقّ ضيّق واكبّ على الاماتة والصلاة ، فلما كثر زائروه وخشي ان يشوشوا عليه نظام رياضاته الروحية اليومية ، غادر مغارته واوغل في الجبل ، فاقام في موضع بعيد يعيش فيه في الخلاء معرّضاً جسده الليل والنهار للتقلبات الجوية. وعلى بدنه مسح من شعر غليظ ، وفي ساقيه قيود من حديد ، يقتات بيسير من عدس مبلول. نيفاً وثماني وثلاثين سنة استمرّ على هذا العيش الذي يرعبنا مجرد ذكره ، ويملأ انفسنا تعجباً.

اما زميله ليناوس فحبس نفسه ايضاً في شقّ صخر لا يزيد على ان يسعه واقفاً على قدميه. ولا سقف من فوقه ، ولا جُنّةٌ تقيه الرياح والمطر وحرّ النهار. وكان الزوّار يأتونه من كل صوب وهو لا يملك صدّهم عنه. فصنع كوةً صغيرة في حائط سجنه يحدّث منها طالبي نصحه وارشاده ومعونته. نزلت به علة بدنية فابى ان يُقفّ الما بعلاج. ولسعته افعى في جسمه ، فصبر على شدة الاوجاع. واولد عنده ازدياد الالم والضنك ازدياد السرور.

وجعل عدد الاعلاء اللاجئين اليه يتزيد ، فانشأ مأوى للعميان وذوي العاهات والمعوزين والغرباء ممن يأتون الجبل اجتناء اثمار عنايته. وكان يهيّ نفقات المأوى مما تجود به رحمة المؤمنين ، وينتهزها فرصةً لبعث اولئك المساكين على تسبيح الله وتمجيد اسمه القدوس.

ان هؤلاء النساك الذين نتمثلهم كاناس نفروا من معاشرة بني جلدتهم ، او كجنود انهزموا من ساحة معركة الحياة ، ما كانوا قط يضيعون وقتهم او

يلتمسون الراحة بعيداً عن المعارك اليومية بل يعيشون عيشة الابطال المشفقين على الغريب . يهتمون بالابدان توسلاً الى نفع الارواح. ان القداسة تطمح بفتح القلوب ، ولها الجرأة والاقدام لتوكلها على الله . فقبل ان توجد «مؤسسات الاسعاف العام» جعل النساك المنفردون على قمم الجبال وفي بطون الاودية يجلبون الاعانات الى الاعلاء والغرباء ، مذكرين المسيحيين بما يجب عليهم من التعاون على الحياة.

اما يوحنا الساتح فحبس نفسه في كهف مدة خمسة وتسعين يوماً. ثم خرج الى جبل اقام على ذروته خمساً وعشرين سنة ، هدفاً لتقلبات الفصول ، قوته الخبز والملح ، وكسوته مسح من شعر الماعز تجمعها معاً صفائح ثقيلة من حديد. تحنن عليه صديق فغرس لوزة بالقرب من موضع كان الحبيس يأخذ فيه يسيراً من الراحة ، فلما كبرت الشجرة قطعها الحبيس ليبعد عن خاطره كل تجربة قد تطرأ عليه للتمتع بالظل او بثمر اللوز.

اما الناسكان انطيوخوس وانطونيوس فليست سيرتهما اقل غرابة . فان الاول بنى حائطاً في وسط صخر . والآخر انفرد على ذروة جبل عالٍ . وكان كلٌ منهما يصرف نهاره منتصباً على قدميه ، يتأمل ، ويُميت شهواته ، ويكبد جسده عذاب الجوع والعطش . ولم يكن وقر السنين ، ولا وهن ابدانها بصرامة النسك الهائل ، ليفتّا من عزمها الذي تعضده نعمة الله.

وكان اكثر اولئك النساك يدفعون النعاس بمثل الوسيلة الآتية وهي انهم كانوا يحملون على اكتافهم خشبة ثقيلة فاذا اثقل النعاس اجفانهم لشدة التعب وطول السهر تسقط الخشبة الى الارض فيهرب النعاس من صوت وقعتها.

ومتى اصبحت اجسامهم المنهكة غير قادرة على اطفاء ما بهم من ظماء الى التضحية كان المسيح المصلوب الذي اوحى اليهم ذلك العيش الغريب يدعوهم الى ملكوته ليكللهم بمجد القديسين.

وماذا نقول في النساك العموديين الذين اختاروا ان يعيشوا عيشة غريبة الصرامة ، فصرف بعضهم العمر على رأس عمود ، والبعض الآخر في تجويف شجرة او على اغصانها ؟ انعدّهم من ذوي الحماقة والتطرّف ، كما عدّهم من قبل

بعض اساقفة انطاكية وروسا. كهنتها ؟ ما ابله الحكمة البشرية التي تقيس على قامتها اولئك النساك جبابرة الحياة الروحية ! ان الله ما لبث ان صنع العجائب على ايدي هؤلاء العموديين وسكان الشجر ، واعلن فضائلهم السامية كي يراها اشد الناس عنادًا ويعلموا ان تلك السيرة تروقه عزّ وجل . وانه اذا لم يكن الجميع مدعوّين اليها ، فعليهم ان ينظروا اليها بعين التعجب والاستحسان ويعرفوا ان الروح القدس قد اوحى بها .

وقد يخطر ببال بعض المتشدقين ان يتهموا اولئك النساك بشدة النزوع الى الاستقلال . غير ان التجربة كانت تريهم انهم كانوا من اشدّ ابناء الكنيسة طاعةً وخضوعاً . فانهم لدى اول اشارة تبدو من رئيسهم الشرعي ، كانوا يتركون منسكهم وعمودهم وشجرتهم ، ويقبلون بطيب نفس الى ما يصرفهم اليه الاساقفة من وعظ او مجادلة لاهرتية او صنع اعجوبة تأمرهم الطاعة باجتراحها

ولا يقم في وهمكم ان اولئك الجبا. كانوا جهالًا ، بل انهم كانوا مولعين بالدرس مستمرّين على طلب العلم . فالتأمل مقروناً بالصلاة وبنعمة الله كان يكشف لهم عن اسرار الاسفار المقدسة .

وكانوا مرسلين يهبط عدد كبير منهم الى ابواب لبنان وينسلّ في هذا البلد عن طريق عكار ولبنان الشمالي ، ومنهم القديس سمعان العمودي الذي يُروى عنه انه زار الجبّة .

وقد اوردت[1] القصّة التي جا. فيها ان هذا العمودي العظيم قد انتهى حتى الى بشراي بدعوة من سكان ذلك الاقليم وكانوا لا يزالون على عبادة الاوثان . وذلك ان وحوشاً ضارية كانت تعيث فسادًا في بلدهم ففزعوا الى النساك القديس ، فامرهم ان ينصبوا على تخوم ارضهم حجارة ينقشون فيها صلباناً . فلما فعلوا ذلك توارت الضواري والزحافات المؤذية .

وغا عدد النساك في لبنان لان كل ما في لبنان ، ولاسيما الوادي المقدس (قديشا) ، يدعو الى التأمل وتسبيح الخالق القدير : جمال الوادي ، زمجرة المياه تجري متدافعة الى البحر ، صفير الرياح يتغلغل في المنحطفات ، الصخور الشاهقة التي

١) المشرق (٢٦ [١٩٢٨] ٣٦٣)

تتألف منها اسوار ذلك المقل معقل الحياة النسكية وقد فرّقت يد الطبيعة الاشجار في اخاديدها ، اريج الارز المحيي تحمله نسمات السحر والاصيل وتعطر به ارجاء النهر المقدس ، السماء تارة صافية تتوقد فيها مصابيح النجوم وتارة مكفهرة متلبدة بالغيوم الحبالى بالصواعق والعواصف ، زقزقة العصافير ما بين الورق والرتم والازهار الحقلية . تلك قدرة الخالق تتجلى في كتاب الطبيعة الكبير . والحبساء يدرسون ذلك الكتاب وينعمون النظر فيه . كل شيء يتعرّى في نظرهم من ثوب المادة الثقيل لانهم اذ آثروا الفلسفة الالهية ، هدموا بكل سرعة ودون تردد الحاجز الكثيف الذي اقامته الهيولى بينهم وبين الروح . فهؤلاء الناس عليهم مسحة المسكنة والذل لكنهم من اعظم الحكماء ومن اكابر ابطال الروح .

وهذا سرّ الجاذب الذي كان يُميلُ اليهم الناس حتى اشدهم تعلقاً بالمادة ، ويذكرهم ان لهم نفساً كما للنساك وان تلك النفس مخلوقة لغاية سامية .

تغلّب فيهم الروح على المادة فجعلهم رسلاً تجلى عملهم الرسولي في اربعة اقطار المسكونة ، وفي كل الازمنة .

٢

اما المثال الثاني السيرة النسكية في لبنان فيقدمه لنا القرن السادس عشر . ان هذا الحبيس هو ايضاً من تلاميذ القديس مارون . ويدعى يونان المتريتي نسبة الى متريت مسقط رأسه وهي قرية في لبنان الشمالي .

حارب اللحم والدم مدة خمسين سنة ، فاحرزت نفسه بابلائها في قتال الجسد اكليل المجاهدين الابطال .

لم يكن يأكل الا مرّة في اليومين . وكان طعامه شيئاً من الحبوب المسلوقة بالماء . اما في الصوم الاربعيني فما كان يذوق غذاء الّا يومي السبت والاحد ، ويمتدّ صومهُ من العنصرة الى الميلاد ومن عيد الدنح الى الفصح . وكان تصرفه مطابقاً لروح الكنيسة حتى في اماناته وتقشفاته . ولم يكن يشرب الماء الا يوم السبت ولا يشربه الا صرفاً ، وان كانت المحابس لا تخلو من جيّد الخمر . وكان في ستة الآلام يسجد اربعاً وعشرين الف سجدة ، وفي سائر ايام الصوم يركع حتى يجري عرقه . ولا تجهلون ان العرق لا يجري بسهولة من

جسم هزله السهر والصوم واشغال الحقل الشاقة . وكان في تلك الركعات ، المعروفة عند النساك والرهبان بالمطانيات ، يرتل المزمور المئة والثامن والاربعين وما يليه ، وتسبحة الفتيان الثلاثة في الاتون.

يا له تفسيراً بديعاً لهذه التسابيح المرتلة تكريماً للخالق تنطق به بلسان حالها طبيعة تلك الاودية والجبال المقفرة وتلك السماء المشرقة ثم القاتمة :

« سبحوا الرب من السماوات ! سبحوهُ في الاعالي ! سبحيه يا سماء السماوات ، ويا ايتها المياه التي فوق السماوات ! سبحي الرب من الارض ايتها التنانين وجميع الغمار ! النار والبرد ، الثلج والضباب ، الريح العاصفة الممضية كلمته . الجبال وجميع التلال . الشجر المثمر وجميع الارز . الوحوش وجميع البهائم . الدبابات والطيور ذات الاجنحة ، فان اسمه وحده عالٍ ، وجلاله فوق الارض والسماوات !

« باركي الرب يا جميع اعمال الرب ، ايتها السماوات والمياه وكل ما فوق السماوات ! باركي الرب يا قوات الرب ! ايها الشمس والقمر ، يا نجومَ السماء وجميع الامطار والاندا. ، ايتها الارواح التي يقيّدها الرب ، ايتها النار والحرُّ ، ايها البردُ والجليد ، ايها الصقيع والثلج ، ايها الليل والنهار ، ايها النور والظلمة ، ايتها البروق والسُحب ، ايتها الجبال والتلال انبتة الارض ، ايتها الينابيع والبحار والانهار ، الحيتان وطيور السماء ، الوحوش والبهائم ، القطعان وبني البشر ، كهنة الرب وعبيده ، ارواح ونفوس الصديقين ، ايها القديسون والمتواضعو القلوب ، سبحوا الرب وباركوه ومجدوه ! »

ينشد الحبيس هذه الآيات وفي ختام كلٍ منها يركع مطانية ، وهو يقول: ولك يليق المجد يا الله !

وكان يونان على سيرته الصارمة وقسوته على نفسه محلّى برحمة وحنوّ لا نظير لها وقد عالج ان يكتب سيرته تلميذه جبرايل الاهدني . لكنه ما شرع يخطّ حياة معلمه حتى ثبت عجزه فطرح القلم من يده ، مكتفياً بكتابة ما يلي معتذراً قال : « ها اني انا الحقير ارمي القلم من يدي الخاطئة لئلا يقول القارئ كيف ان هذه الشجرة المثمرة اخرجت هذه الثمرة الغضة المرة . » عنى

بالشجرة المثمرة يونان وبالثمرة المرة تلميذه.

وعزّز الرب قداسة يونان بموهبة صنع الآيات ، فكان مرةً ان نفد الزيت من المحبسة فصلّى الحبيس فامتلأت الخابية وطفحت ، فاستولت الدهشة على تلميذه وصار لا يدري ما يفتكر. فالتفت اليه معلمهُ وقال: مجّد ربنا يسوع المسيح ، وانظر الى عجائبه على يد احقر عبيده. واوصاهُ ألّا يخبر احدًا بذلك قبل ان يتوفاهُ الله.

ولما احسّ رجل الله بدنوّ اجله وانعتاقه من قيود هذه الحياة الفانية ، ارسل الى بطريركهِ يطلب بركته ، فجاء البطريرك نفسهُ وشهد ساعة وفاته . فلما خرجت نفسه طائرة الى السماء ، بدرت الجموع الى المحبسة يلتمسون بركة من كانوا يكرمونه كوليّ ويطلبون شفاعته.

وللحبيس يونان تلاميذ كثيرون . منهم يوحنا اللحفدي الذي خدم ، وهو مريض وناحل البدن ، معلمه القديس مدّة اربع عشرة سنة . وكان في اسبوع الآلام يركع ستًا وعشرين الف ركعة. وقد ظهر له معلمه المتوفى وعزّاهُ ودعاهُ الى وليمة الحمل.

ومنهم جبرايل الاهدني . وهذا تراءى له معلمه يونان وامرهُ ان ينشر صخرةً كانت تعوقه عن توسيع كنيسة دير قزحيا . فنفّذ جبرايل امر معلمه وبجسب رغبته اليه بنى في الكنيسة ثلاثة مذابح احدها على اسم السيدة العذراء ، والثاني على اسم القديس انطونيوس ، والثالث على اسم القديس مكاريوس . وجاء في التاريخ: «ان الحبيس العظيم جبرائيل كان رجلًا متقشفًا جدًا يركع الف ركعة في اليوم ولا يذوق الماء مطلقًا من ابتداء الصوم الى خميس الاسرار. ومع كل هذه الاتعاب والتقشفات والصلوات العقلية المستطيلة لم ينقطع عن نسخ الكتب البيعية حتى ملأ جبل لبنان كتبًا من خطه الجميل.»

لم يكن هذا النسخ بالعمل الهيّن . فان الناسخ مع ما كان يكابده من القعود القرفصاء ساعات عديدة ، ومن ضبط العقل الضروري لنسخ الكتب الطقسية من وجه الدقة المطلوبة . كان يلذه ان يتلو مرارًا في اليوم المزامير وميامر آباء الكنيسة تكريمًا للجلال الالهي ، وللعذراء القديسة ، والشهداء القديسين

ويظهر ان شهرة قداسة هؤلاء الجبناء قد بلغت الى الغرب بدليل ان فرنسوا دي شطويل وافى لبنان واقام في تلك المحابس اثنتي عشرة سنة مكبًّا على درس الكتاب المقدس بلغته الافرنسية . وعاكفًا على الصلاة العقلية وانواع الامساتات الجسمية المختلفة ، وكان صديقًا للبطريرك العلامة جرجس عميره الذي استاهل بتقواه وعلمه ان يلقبه البابا بلقب « نور في كنيسة المشرق ».

ومفارة حوقا القائمة كوكر النسر تجاه ترحيا لا يزال يفوح منها عطر فضائل ذلك الرجل الذي جاءت مشوراته الحكيمة باعظم فائدة للطائفة المارونية في ايامها العصيبة . كما ان محبستي القديسين يعقوب وسركيس في اهدن ما برحتا تحفظان الى اليوم ذكرى ذلك الحبيس الافرنسي ، الذي تقفّى سيرته النسكية اربعة آخرون من بني جلدته انقطعوا الى الله في مناسك لبنان.

وبين جبناء قديشا كان يُنتخب بطاركة الطائفة المارونية واساقفتها . ولم يزل البطاركة والاساقفة الى ايامنا هذه يغطّون رؤوسهم بالاسكيم (غطاء رأس الراهب) تذكيرًا للاساقفة انهم حين يقبلون كمال الكهنوت ، يلتزمون سيرة النسك والاماتة على مثال الجبناء الذين اوجدوا الطائفة المارونية.

وكان عدد الجبناء يزداد مع السنين وتكثر المحابس بازديادهم فاقتضى ذلك انشاء زيارة وادارة عامة ، لما يترتب عليهما من توفر المنافع وحسن النظام وكان الجبناء اول من شعر بتلك الحاجة . فاقاموا منهم واحدًا سموه رئيس المحابس وعهدوا اليه بالسهر على القانون والتهذيب. وكانوا يقلدون هذه الرئاسة رجالًا امتازوا بالقداسة ، او جمعوا بين القداسة والعلم كرئيس اساقفة دمشق سركيس الرزي تلميذ مدرسة رومية المارونية الذي أُخذ من المحبسة وأُكره على قبول مطرانية دمشق . وهذا امر يندر حدوثه ، ثم استدعي الى رومية لترؤس اللجنة التي الفها الحبر الاعظم لاعادة النظر في ترجمة الكتاب المقدس.

(للبحث صلة)